القيح

(رواية تنشر لآول مرة)

تاليف: سعيد سيفاو المحروق

القيح

(رواية تنشر لآول مرة)

تاليف: سعيد سيفاو المحروق

اعده للنشر تامغناست

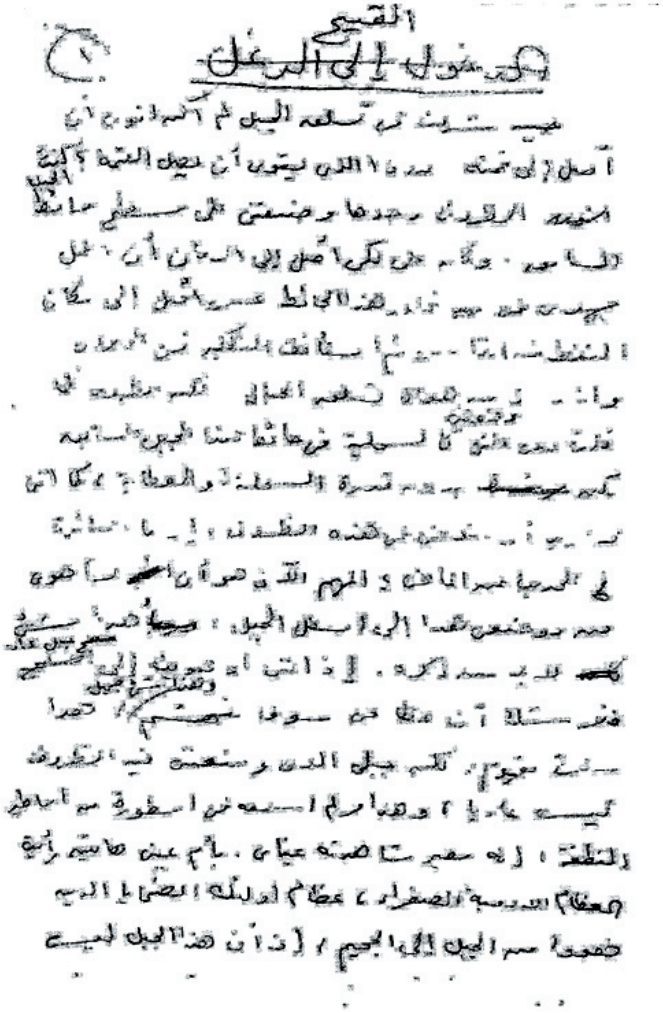

صورة من المخطوط الأصلي بخط المؤلف

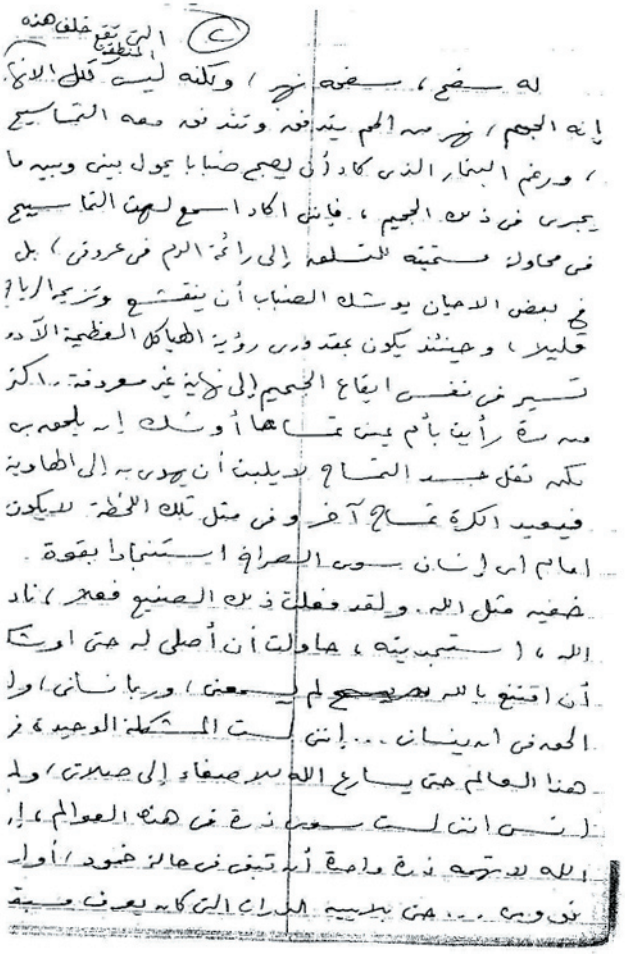

صورة من المخطوط الأصلي بخط المؤلف

القيح
الدخول إلى الدغل

حين شرعت في تسلق الجبل لم أكن أنوي أن أصل إلى قمته. من الذي يقوى أن يصل القمة؟ كنت الظروف وحدها وضعتني على سطح حائط الجبل السامق. وكان علي لكي أصل إلى الأمان أن أعمل جهدي في تجاوز هذا الحائط عسى أصل إلى مكان التقط فيه أنفاسي ثم أستأنف التفكير في الخلاص.

وأنا لست من هواة تسلق الجبال لكن الظروف كما قلت هي التي وضعتني كالسحلية في حائط هذا الجبل السامق لكن بدون قدرة السحلية أو العظاية. كما أنني لا أريد أن أخوض في هذه الظروف. إذ ما الفائدة في الحديث عن الماضي؟ المهم الآن هو أن لا أهوى من موضعي هذا إلى أسفل الجبل. هذا شيء لابد من ذكره. إذ أنني لو هويت إلى سفح جبل فلا شك أن عظامي سوف تتهشم وهذا شيء جميل. هذا شيء مفهوم. لكن جبلي الذي وضعتني فيه الظروف ليس عاديا. وهذا أمر لم أسمعه في أسطورة من أساطير المنطقة. إنه مصير شاهدته عيناي. بأم عيني هاتين رأيت العظام الآدمية الصفراء. عظام أولئك الضحايا الذين هووا من الجبل إلى الجحيم. إذ أن هذا الجبل ليس له سفح. سفحه نهر. لكنه ليس المنطقة التي تقع خلف هذه لكل الأنهار. أنه الجحيم. نهر من الحمم يتدفق وتدفق معه التماسيح. ورغم البخار الذي كاد أن يصبح ضبابا يحول بيني وبين ما يجري في ذلك

الجحيم. فإنني أكاد أسمع لهت التماسيح في محاولة مستميتة للتسلق إلى رائحة الدم في عروقي. بل في بعض الأحيان يوشك الضباب أن ينقشع وتزيحه الرياح قليلا. وحينئذ يكون بمقدوري رؤية الهياكل العظمية الآدمية تسير في نفس إيقاع الجحيم إلى نهاية غير معروفة. أكثر من مرة رأيت بأم عيني تمساحا أوشك أن يلحق بي لكن ثقل جسد التمساح لا يلبث أ. يهوي به إلى الهاوية فيعيد الكرة تمساح آخر وفي مثل تلك اللحظة لا يكون أمام أي إنسان سوى الصراخ استنجادا بقوة خفية مثل الله. ولقد فعلت ذلك الصنيع فعلا. ناديت الله. استجديته. حاولت أن أصلي له حتى أوشكت أن أقتنع بالله لم يسمعني. وربما نساني. وله الحق في أن ينساني... إنني لست المشكلة الوحيدة في هذا العالم حتى يسارع الله للإصغاء إلى صلاتي. ولم أنس أنني لست سوى ذرة في هذه العوالم. إن الله لا تهمه ذرة واحدة أن تبقى في حالة خمود. أو إشعاع نووي... حتى بلايين الذرات التي كانت يعرف مسبقا أنها ستدمر هيروشيما وناغازاكي لم يبال بها. فكيف يبالي بذرة غير مشعة مثلي؟ وما الذي يضيره أن أكون ذرة عالقة بهذا الجبل. أو أن أصير ذرة في بطن تمساح أو حتى أذوب هيكلا عظميا في نهر الجحيم الذي يتدفق من تحتي؟

كنت أسمع ارتطام أجساد التماسيح بجحيم النهر فوق الهياكل. الآدميين وكنت انتظر المصير ذاته فيما لو زلت قدمي عن النتوء الصغير الذي وضعت قدمي عليه. أو انقطع حزامي الذي سارعت منذ حلول الكارثة إلى رميه إلى فوق عساه أن يثبت ببعض النباتات النامية في هذا الدغل حتى يخونني توازني ويسلمني إلى نهر الجحيم وتماسيحه. لقد كانت رمية موفقة. وكانت إلتفاته كرمة من الله. لكن الله إذا التفت مرة فلا يعني ذلك انه في كل حين وخاصة لذرة حقيرة من ذراته. إن العالم مهدد بالفناء بالتوتر

المستمر بين أمريكا وروسيا، ولابد من الإدراك بأنني لست دنيا أو عالما، أنا لست سوى ذرة خامدة بين ذرات الله المشعة.

بعد أن ناديت الله طويلا، واستجديته، وتضرعت إليه، بعد كل ذلك تذكرت أقول أهالي هذه المنطقة والمناطق المجاورة لها وتلك التي تبعد عنها أيضا. تذكرت أن الله لا يستجيب بسرعة، إنه جل وعلا بطئ كثيراً ويمهل كثيراً وقد يمهل البث في الموضوع إلى يوم يسمونه يوم القيامة، أي بعد موت الظالم والمظلوم. تذكرت كل ذلك بانزعاج حتى أوشكت قدمي أن تزل بي إلى التماسيح الفاغرة أفواهها ،على المياه الجهنمية التي تتدفق في النهر. وهكذا أسلمت اليأس من الله إلى التضرع للأولياء، لأن الأولياء بعكس الله، لا يمهلون البتة، أفعالهم تأتي حسب الطلب وعلى وجه السرعة، كل ذلك سمعته من أهالي هذه المنطقة والمناطق المجاورة لها وحتى من أهالي المناطق البعيدة، لقد كان ذلك أملا، لكنه لم يدم لقد تحول إلى بصيص من الأمل، ثم اختفى حتى البصيص بعد أن أسلمني لليأس من الأولياء أيضا، وهكذا... فإن اليأس أصبح يسلمني لليأس فلقد اتفقت الروايات بالتواتر بين أهالي هذه المنطقة والمجاورة لها وحتى أهالي المناطق البعيدة... اتفقت بأن الأولياء أسرع لإجابة الداعي إذا دعاهم لكن ليس بالسهولة التي خطرت لي في الوهلة الأولى حينما توقفت عن الاستغاثة بالله. الأولياء مثلا لا يكفيهم التضرع والاستجداء، لأن هذه أمور قد تفيد مع الله وحده في بعض الأحيان، أما الأولياء فإن لهم شروطا في حكم المستحيل بالنسبة لي أنا المعلق في جدار هذا الجبل لأسباب غير مفهومة أنا المهدد في كل ثانية أن تزل قدمي فأهوى في أحد أفواه التماسيح الفاغرة أو في نهر القيح المتحرك أبداً إلى اتجاه غير معلوم... فمن أين القدرة لشخص في مثل هذه الظروف أن يذهب إلى عراف أو عرافة تدله على الولي المختص؟ مسألة الأولياء أكثر تعقيدا مما

تصورت في الوهلة الأولى، إذ لا يصح أن أطرق باب أي ولي كان، إذ يجوز أن يكون مختصا بمأساة لا تعنيني كأن يكون مختصا بعلاج الجفاف فينزل من السماء ماء فيحي الأرض بعد موتها... أما أنا فما حاجتي للماء؟

كررت التفكير بصوت مرتفع " ما حاجتي للماء؟ " حتى أن التشنج العصبي تسرب من حلقي إلى قدمي وكادت أن تزل فازدادت يداي تشبثا بالجبل... ثم هب أنني لست في هذا الظرف، هب أنني أملك القدرة على الحركة وعثرت على العراف أو العرافة... وقصدت الولي المختص ليقيني شر الوقوع بين أفواه التماسيح الفاغرة أو نهر القيح من على حائط الجبل... هب تم كل ذلك في غير هذا الظرف الغامض، فهل أحصل على هذه البركة بمجرد التضرع للولي؟... إن كل أهالي المنطقة والمناطق المجاورة وحتى تلك البعيدة يعلمون أن الولي في حاجة إلى قربان، ولكن أي قربان؟ كبش منقط في ظهره بنقط سوداء، ديك أحمر العرف، نعجة سوداء لها بقعة بيضاء في جبهتها وفي بطنها... بغير هذه الشروط سيتقاعس الولي وقد يستشيط غيظا في بعض الأحيان فيزيد الطين بلة ويسبب في كارثة أخرى قد لا تكون في حسبان أحد، لأن زيارة الولي بدون القربان أو بدون الوصف الذي حدده العراف أو العرافة، قد يعد إهانة لمقام الولي وحينئذ قل: يا هاربا من الغولة، يا واقعا بين يدي سلال القلوب.

إذن، مادام الأمر كذلك، فمن العسير إدراك الحكمة وراء ولادة شخص وموت شخص، من العسير الاعتقاد بأن ثمة حكمة وراء كل ذلك، ما الفرق بين موت آدمي وموت ذبابة أو صرصار؟ ليس ثمة إجابة حقيقية سوى العبث.

فجأة طفقت اصرخ صرخة الغول عندما يعود إلى بيته ويشم رائحة غريب:

القيح

- رائحة المسري والكسري! ما الذي أتى بها إلى قصري؟

وبالطبع فأنا لا أعرف ما هي رائحة المسري والكسري، عجائز الدنيا يعرفنها فقط، ولست بالغول الذي عاد إلى داره، أنا ضحية أخرجت من دارها ثم علقت في حائط هذا الجبل اللعين... لكن شيئا غريبا بدأت حواسي المتبقية تشعر به، مثلا بدأت الفصول تعاقب على غير العادة، في لحظة واحدة بدأت أعيش أسوأ طقوس الفصول الأربعة، اختارت أسوأ فترة في رقاد ريحي لتهب علي الرياح، لم يكتف الله ولا الأولياء بتعليقي فوق نهر القيح في حائط هذا الجبل، لم يكتفوا بكل ذلك فرأوا أن يسلطوا علي هذه الرياح العاتية الصرصر، لقد اضطرني الله أن أنساه... أنساه ليس لأنه نساني، فمن أن حتى أتحدى نسيان الله؟ نسيت الله لأن لا وقت عندي لاستجدائه أما هذه الرياح، وحينما هبت ريح القبلي في الصيف الذي أصبح لحظة صيف، لحظة أبعادها الثلاثة طولا وعرضا وعمقا... حينما هبت ريح القبلي في لحظة الصيف هذه تذكرت الحديد... أن أمسك بالحديد.. لأن أهالي هذه المنطقة والمناطق المجاورة وحتى البعيدة... يقولون أن ريح القبلي ليست ريحا إنها أرواحا شريرة، وأن أفضل طريقة لاتقاء شر هذه الأرواح هو أن يمسك الإنسان بالحديد فتختفي الأرواح التي تتظاهر أنها مجرد رياح... رياح قبلية بريئة.

الحديد.. الحديد، صرخت، وكأنني في يوم من أيام حياتي العادية، لا يستدعي هذه الأرواح مني سوى أن أمسك بقضيب حديدي، حتى تفر أرواح القبلي من أمامي، لا أدر لم نسيت أنني مجرد عبد ليس بين سوى حزامي متسمراً في حائط هذا الجبل اللعين، ولو طال سهوي لهويت في فم أحد التماسيح الفاغرة أفواهها.. أو غرقت في نهر القيح، نسيت أنني أصبحت مجرد خفاش بل خفاش غير سوى الخلقة، لأنني لو كنت خفاشا لتعلقت برجلي في مكان أمين، حينئذ تمنيت لو كنت خفاشا حقا، لأنني لو كنت كذلك لاستطعت أن أطير حيثما أشاء، ثم إن أرواح القبلي لا تطارد الخفافيش، إنها مغرمة باجتياح الآدميين فقط، والأبشع من كل ذلك أنني ليس لي حيلة الخفاش ولا حياة الإنسان، وحتى لو كنت سجين هذا الدغل، فإنني لست كغيري من المساجين الأسوياء، أنا سجين بلا اسم في زنزانة بلا رقم، إذ من له القدرة على الدخول في هذا الدغل المليء بنهر القيح، ومن له القدرة على الاقتراب من هذه التماسيح الفاغرة أفواهها أبداً، أن يتسلق هذا الجبل الخالي من أي موضع للقدم.. فهذا هو المستحيل لأنه لو استطاع أحد الدخول في هذا الدغل لأستطاع السجان أن يضع فوق ظهري رقما كبقية سجناء العالم كما هو المعمول به في كافة السجون المزدهرة في اتجاهات العالم الأربعة، أما بالنسبة لاسمي فلا أحد في العالم يقدر أن يتعرف إليه، أنا شخصيا نسيت اسمي لأنني لم أعد في حاجة لاستعماله منذ زمن طويل... لكن أرواح القبلي التي تداهمني في فصول الصيف، ليست بشيء يذكر أمام كوارث فصل الربيع.

في ذات فصل ربيع، أو في ذات لحظة متضخمة لحظات الربيع الخريفية، نظرت إلى قمة الجبل التي صرفت نفسي عن التفكير في الوصول إليها وفي لحظة واحدة أصبحت أفضل السقوط في نهر القيح عن إمكانية تسلق الجبل، في الوهلة الأولى خاف قلبي لكن لم يخف عقلي: رأيت فوق القمة هيكلا عظميا يشبه هيكل الإنسان، وفي فإنني في الجزيء الأول من الوهلة ظننته شجرة شمطاء من أشجار الجبل الموصوفة في أعمال السحر الأسود، ثم تذكرت أنني لم يسبق لي أن لمحت شيئا فوق تلك القمة، فأمعنت النظر وأنا أحاول تكذيب ما رأته عيني... لكنني لم ألبث بعد تمام الوهلة أن صدقت ما رأيت: هيكل عظمي لإنسان... لكن تعاقب الفصول لم يمهلني الفرصة في إمعان النظر في الملامح الزائلة في هذا الهيكل، ولم أدر ما إذا كان هذا

القيح

الهيكل أحد ضحايا نهر القيح وتماسيحه أم أنه مجرد هيكل عظمي لأحد الموتى... قام لتوه من قبره وتربع فوق القمة... ثم عادت دقات قلبي تعلن زوال الخوف وقال لي قلبي مع عقلي في صوت واحد: بعد أن رأيت في هذا الدغل ما رأيت فما الذي يخيفك بعد كل ذلك؟ الحياة لا بأس بها لكن الموت في أكثر الأحيان أفضل مما تصور في عهدك الأول بالحياة، وفي بعض الأحيان لابد من الموت لتسير أمورك على ما يرام... عندما أتى الشتاء لم يعد الخوف يشغل قلبي، ولم يعد العقل وحده يحتكر التفكير، أصبحت التفاهة هي هاجس قلبي.

كل شيء مقبول ومعقول: الخوف معقول، الكوارث مقبولة، الموت ذلك الموت يا له من رائع... لكن ما معنى كل هذه التفاهة؟ ما الحكمة من وراء التفاهة؟ الألم الناتج عن الجرح مقبول ومحتمل مهما كان شديداً لكن ما معنى القيح بعد كل ذلك؟ حشو لا طائل من ورائه... أهمني فصل الربيع.. نظرت إلى فوق محملقا في الهيكل العظمي ثم صرخت صرخة الغول التي لا يفهمها أحد سوى عجائز الدنيا.

- رائحة المسري والكسري! ما الذي أتى بها إلى قصري؟

كدت أرى فجوتي عيني الجمجمة في الهيكل تحدجانني في شماتة.

قلت للهيكل العظمي على سبيل تزجية وقت فصل: طولا وعرضا وعمقا:

- " شد أحجارك، وأقعد في دارك ".

لقد تعود قلبي على عادة التفكير نيابة عن عقلي، لكنني خشيت أن تستخفه نزوته القديمة فيقلب إلى ظهر المجن، كبحت جماح قلبي فيما أطلقت لعقلي العنان في محاولة استعادة ملامح الهيكل العظمي قبل الموت، لا ريب عندي في أن هذا الهيكل إنما هو شبح ميت، والعادة عندنا أن نسميه غولة، لكن من جهة أخرى قد يكون غولا أيضا، والفرق بين الغول والغولة كالفرق بين الذكر والأنثى، وليس الذكر كالأنثى... هذا يفضي بي إلى سؤال تصعب الإجابة عليه ذلك لأن الموت لا يأتي على القلب والأطراف والرأس فقط بل هو يأتي على الأعضاء التناسلية أيضا، وهذا يجعل الجزم بأن الشبح القابع فوق القمة غولة أو غولا.. أمرا مستحيلا... ثم آن أوان فصل الصيف وأرواح القبلي الشريرة وطفقت أصرخ: الحديد! الحديد! لم يكن أمامي إزاء سياط الأرواح سوى الصراخ والتلويح بلساني لكن لساني خال من العظم. لقد تخلى الله والأولياء وحتى الحديد عني، بل حتى العظام تآكلت وذابت في لساني... لساني ليس كبقية السنة الكائنات، أصبح لساني بلا عظام وهذا يعني أنني لا أتكلم البتة.. أنا أرطن وماذا يعني الرطان؟ وحتى إذا عنى عندي شيئا فإن الآخرين لم يفهموا منه شيئا، وإذا فهموا شيئا فلن يفقهوا من رطاني سوى أنني أصدر مجموعة من الأصوات لا تمت إلى أية أبجدية معروفة... إلا أن رطانتي مجموعة من الأصوات الحوشية... حتى أن هذا النسق من المونولوج أوصلني إلى التساؤل فيما إذا كانت كلمة الحديد التي لوح بها لساني الواهن ربما فهمتها الأرواح القبلية بأنها الماء، إذ لو فهمتني هذه الرياح قليلا بأنني أعني بالحديد تلك القوة التي لا تقهر لأحجمت مترددة عن لفحي بهذه السياط الجهنمية التي لا يحتملها الصخر، بل يبدو أن الأرواح القبلية فرحت عندما سمعتني أصرخ الماء! الماء!... لأن البرك والعيون والمستنقعات والبحار العليا موطن أثير للأرواح أيا كان أصلها، هذا هو ما يجعل بعض الأشياء اللامعقولة واللامقبولة معقولة ومقبولة رغم أنف طبيعة الأشياء، حتى هذه السياط اللافحة اضطررت أن اعتبرها مقبولة وإلا فما البديل؟... لا أقوى على الزعم بأنني اكتسبت مناعة ضدها، وليس لأني

القيح

جلدي قد تكلس أو تحجر... لكن لأنني كلما هربت من الغولة وقعت بين براثن سلال القلوب... حتى الدوران مائة وثمانين درجة فجأة في جميع الأشياء يصبح مقبولا فها هو ذا فصل الشتاء والبرد والصقيع والجليد قد آن أوانه على خلاف ما أعرفه في نظام التقاويم في عصوري السحيقة قبل أن أجد نفسي سجينا بلا اسم في هذا الدغل هذه الزنزانة التي تستحيل أن يوضع عليها أي علامة أو رقم.

جلدي الذي ساطته أرواح القبلي حتى تشقق وتقرح تأتي الرياح الشرقية الآن بعد أن حل فصل الشتاء لتكمل ما تعبت أرواح القبلي أن تفعله بي. فإذا حل الكلل بالرياح الشرقية هبت الرياح الغربية لنصرة أختها... حتى الطبيعة تسير وفق مبدأ: أنا وابن عمي على الغريب. فإذا انزل العياء برياح وأرواح الاتجاهات الأربعة انقضت كتل الجليد كالدببة القطبية البيضاء على رأسي من علٍ من سماوات الله ورغم أن العادة تقضي خارج هذا الدغل أن يتساقط الثلج فدفا قطبيه ثم يتحول على الأرض إن شاء إلى جليد في نهاية المطاف، إلا أن الأمر معي كان - كما هي عادة كل الأمور - على العكس تماما، إذ في البدء كان الجليد، وكان رأسي هو المسقط وكان الجليد هو رأسي، ومع ذلك فإن المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام، لم يبق إلا السماء أن تتشقق كلوح زجاج مصنفر لتهوى على رأسي هي الأخرى، فلماذا تترددين في السقوط أيتها السماء، وما تخافين؟

حينما استهلكت الدببة القطبية قواها في افتراس رأسي؛ حينما لم توفق كتل الجليد في عملية غسل دماغي وجدت أن نظام فصول الزمن قد ارتبك، لم يعد كما عهدته في العمر الغابر، إذا حل فصل الخريف بعد انتهاء موسم الشتاء مباشرة.

لم تكن أمامي وسيلة تدلني على أن الفصل الجديد هو فصل الخريف.

كنت أفكر بعقليتي الغابرة بأنه الربيع المرعب قد حل، لم تكن في الدغل أشجار حتى أفهم من أوراقها المتساقطة أن لحظة الربيع قد حلت... لقد فهمت الخريف عندما نظرت إلى تحتي إلى التماسيح بعد أن أصبحت تصدر أصواتا...كأنها اسطوانة مشروخة. كانت تتضور جوعا، وحتى محاولاتها المستميتة للحاق بي بدأت تتناقص، لقد أصبحت منهوكة القوى، وبدا لي لون الخريف واضحا على جلودها، لقد أصبحت صفراء في لون الموت.. حتى نهر القيح لم يعد يتدفق مائجا، لقد أصبح القيح أكثر تركيزا وأكثر صفرة، كانت صعوبة واضحة يعانيها النهر في التدفق راحلا إلى المجهول... في عالم كهذا تصبح المفاجأة تخلو من عنصر الفجاءة، إذ حينما تحولت عيناي من التحديق إلى ما يجري تحتي، لم أستطع أن أتجاهل التحديق في صخور الجبل... حتى الصخور والحجارة كانت تقول لي بصوت عال أن الخريف يغمرها... حتى هذه الصخور الصماء التي لفحتها الشموس وأكسبتها في بقية الفصول لونا أسود داكنا - تحولت الآن إلى صخور صفراء، صخور ميتة، بعد أن كانت تضج بالحياة والجبروت. الآن أصبح بوسعي أن أسمع صراخ الصخر... أما هذا الرعب وهذه الآلام التي سكنتني منذ دخولي هذا الدغل، يبدو أنها انتقلت إلى الحجارة أيضا، حتى الحجارة وصخور الصوان أصبحت تتألم والفرق الوحيد بيننا أنني اكتسبت صمت الصخر الذي عهدته في العهد القديم، أما الصخر فلأنه لم يعهد من قبل معنى الحس.. أصبح الآن يصدر صراخا موجعا، لقد أصبح الصخر يصرخ.

لقد حل الخريف وانحل في كل شيء من حولي... حتى السكون، لم يعد ذلك السكون الذي عهدته... لم يعد السكون يتمتع بصمته الوديع الذي يدل على النعمة وراحة البال، لقد أصبح السكون مسكونا بالضجيج والقلق.

القيح

وكما هو معروف فإن الخريف كثيرا ما يقترض من الربيع لحظة من اللحظات وهكذا، ففي لحظة خريف ربيعية نظرت إلى فوق وسمعت لساني يصرخ

- رائحة المسري والكسري!

لقد أنستني أكروبات الفصول قمة الجبل، والميت المتعري، ليس من ملابسه الخارجية فحسب، بل ومن ملابسه الداخلية أيضا... هذا الذي لا زال يتعرى ويتحرى التعري حتى من لحمه وشحمه وأحشائه وأعضائه التناسلية... الأمر الذي جعلني غير صادق لو قلت أنه ذكر أو أنثى، وغير صادق أيضا فيما لو قلت أنه غول أو غولة... هذا الشبح الذي كنت أعاينه منذ لحظة قصيرة قبل أن تتعاقب حولي فصول الزمن الفوضوي، وها أنا ذا في هذه الفصلة الخريفية الربيعية ألمحه لا يزال واقفا فوق القمة هيكلا عظميا عاريا حتى من التراب الذي كان قد أهيل عليه، ومن الحجارة أيضا.. هذا الميت الذي ليس كبقية زملائه الموتى، هذا الضاجر من قبره فقام قبل الأوان.. لم يحتمل طول الانتظار ليقوم في يوم القيامة فقام في زمن غير مناسب، استعجل القيام في الدنيا، ووقف هناك فوق القمة، عاريا من كل شيء بدون خجل أو حياء.

لكن غضبي أحسسته يفتر ثم سرعان ما اتخذ إهابا آخر في شكل دهشة: هذا الميت ما الذي يريد من الحياة؟ لا ريب أن المسكين قد توسل للحياة بعدد لا يحصى من ملائكة الحياة، الوساطة تلعب دورا أساسيا في كل شيء وفي الحين الذي ابحث فيه أنا عن ملائكة الموت، في الحين الذي أبحث فيه عن وسيط ووساطة في سبيل الموت، في نفس هذا الحين يعود هذا الميت العاري إلى الحياة بمجرد الوقوف هناك فوق قمة هذا الدغل بفضل وساطة ملائكة الحياة وبقية الوسطاء والمحاسيب والأكتاف... لكن هذه المسائل قد لا تهمني كثير، ما يهمني الآن هو معرفة جنس هذا الشبح غولة أو غول؟

ربيع الرعب حل بعد انتهاء فصل الخريف. نهر القيح أكاد أسمعه يتدفق فائضا بعظام الآدميين، التماسيح اكتنزت لحما وشحما وحيوية وبدأت في محاولاتها المستميتة للحاق بي حتى لا أكاد اسمع من إرتطاماتها إيقاعات رقصة الموت فوق نهر الموت... كنت أفكر في ذلك بنصف دماغي أما نصف دماغي الآخر فكان يفكر ويقارن بين حوض الأنثى وحوض الذكر، العادة الجارية أن يكون حوض المرأة أضخم من حوض الذكر، هذا الهيكل العظمي القابع القمة غول إذن وليس غولة... هذا واضح من ضيق حوضه رغم فراغه من عضوه الذي افترسه الموت كما افترس بقية أحشائه ولحمه وتركه هكذا مجرد هيكل قابع فوق القمة.

قال لي نصف دماغي الذي لا يزال يفكر "هذا غول، وهذه خطوة مهمة للتمييز بين الذكر والأنثى، إذ ليس الذكر كالأنثى"... ثم بعد لحظة انظم نصف دماغي المرعوب بنهر القيح وتماسيحه إلى نصف دماغي الآخر وأصبحت أفكر بدماغ تام التكوين. "تبقى هناك مسألة تستحيل على العقل: ما ملامح هذا الميت قبل أن يموت ويأكله التراب والدود؟ هذه مسألة ليست من اختصاص العقل.

كنت أفكر باستمرار بأن هذا الزمن الجديد، زمن هذا الدغل، زمن القيح ليس كذلك الزمن الذي عهدته في عمري السحيق: الفصول هنا ليست أربعة بالضرورة كما أنها لا تتعاقب طبقا للنظام القديم، الزمن الآن لحظة متخمة بالزمن المضغوط كاسطوانة الغاز، فسبحان الخالق والمخلوق... منذ أن أدركت أن عقلي قد غادرني تحت ذريعة عدم الاختصاص خفت من هذه

القيح

اللحظة أن يستغرقها قلبي فتمضي في طرفة عين، قبل أن أصل إلى تحديد ملامح هذا الغول قبل أن يصبح غولا يملك القدرة على القيام من قبره بل قبل أن يصبح مجرد إنسان ميت، أي منذ أن كان آدميا ذا ملامح تميزه عن بقية الآدميين.

اتصلت عيناي بقلبي بعد أن انفصلتا عن عقلي، وطفق قلبي يحدق في جمجمة هذا الهيكل العظمي. لم أكن متأكداً من مهارة قلبي، لكنني أذكر صورتي التي مزقتها القبيلة التي تقطن جنبات هذا الدغل. لقد مزقت القبيلة صورتي وكانت تفعل ذلك كأنها تمزقني أنا وليست مجرد صورة تحمل ملامحي. مزقتها إربا إربا ثم سارعت بعد إكمال التمزيق بوضع كل إرب في واد بعيد عن الوادي الذي وضعت فيه الإرب الآخر، حتى امتلأت كل وديان وجحور المنطقة بأشلاء صورتي، كأن الفاعلين يخافون لو تركوا أشلاء الصورة في مكان واحد أن يعثر عليها أحد السائلة فيسارع بدافع الفضول إلى تركيبها جزء بعد جزء، إذ يبدو أن الذاكرة ليست مخيفة فقط بل وكريهة...

أتذكر الآن في هذه اللحظة المتخمة بالزمن المضغوط... أتذكر كيف هرولت للوديان والمغاور وحتى القبور، ابحث فيها واديا إثر وادي ومغارة تلو مغارة وأنبش القبور قبراً قبراً في المقابر المزدهرة، أحيانا أعثر على إرب من صورتي وفي أكثر الأحيان لا أعثر إلا على عظام الموتى التي أفلقتها في سباتها الأبدي، لكنني في النهاية لم أظفر إلا بأشلاء قليلة من صورتي، ويومها قلت هذا هو التاريخ، مجلدات التاريخ الضخمة ليس فيها من الحق إلا أشلاء مثل أشلاء صورتي، أما بقية الصفحات التي تعد بالآلاف فهذه قد كتبتها القلوب والأهواء... كيف يستطيع قلبي مهما تأمل في جمجمة هذا الهيكل العظمي ومهما حاول أن يكسيها لحمها الذي أكله الدود والعقارب وبقية الهوام.. كيف يستطيع لهث القلب أن يعيد لهذه الجمجمة ملامحها؟

من يستطيع أن يدلني على وطن الغجر؟

من يقدر أن يغني لي أغنية فينيقية؟

إلى أي العائلات اللغوية تنتمي لغة الـ (أوزكادي تا أسكاتاسونا) بلاد الباسك والحرية؟

يجب على قلبي أن يبدأ في كتابة التاريخ، عليه أن يبدأ في صياغة الأكاذيب، رغما عن أنف عقلي، وإذا أطلقت العنان لقلبي لاستطعت أن أرى بعيني المتصلتين بقلبي ملامح جمجمة هذا الهيكل، وليس بعيدا أن أرى بقية الهيكل العظمي مكسوا بلحمه وشحمه ومتمتعا بكافة أعضائه التناسلية... ولا أظن الأمر مستعصيا ولا غريبا أن أراه يتحرك ويغادر القمة إذا شاء.

عند هذا الحد تركت قلبي وحده يفكر في الأمر، يرسم الصورة ثم يمحو كما يشاء، لقد نسيته واضطررت أن أتصل بجمجمتي حيث ينام عقلي فسارعت إلى إيقاظه لأن فصل الشتاء قد حل، والمطر بدأ يضرب المطر يضرب؟ لا وقت للاحتجاج على غرابة التعبير، إنها لغة الدغل، والحق أنني أنا الآخر بدأت أصدق في أن المطر يضرب، لقد ضربني على جميع أعضائي المكشوفة وغير المكشوفة، وكان ضربا مبرحا حقا، فلم يبقى سوى أن أسارع إلى الصراخ في وجه السماء، لم أصرخ في وجه المطر، صرخت في وجه السماء، لم تكتفي السماء بالفرجة علي معلقا بحزامي في هذا الدغل فانبرت تجلدني بالمطر واشتد بي الغضب حتى أوشكت أن أترك الحزام وألوح بكلتا قبضتي في وجه أو في قفا السماء لكنني تداركت الكارثة إذ لو

القيح

فعلت ذلك لكان نهر القيح مأواي أو لأصبحت ككرة السلة في جوف أحد التماسيح الفاغرة أفواهها أبدا. وخاصة في فصل هذا الشتاء.. هذا الشتاء الخاص بي وحدي. إنه شتائي. ذلك لأن الزمن لم يقتصر على ارتباك الفصول كما أن الزمن لم يعد مضغوطا في لحظة متضخمة....

لقد أصبح لكل زمانه. ففي الحين الذي حان فيه فصل شتائي وبدأ المطر يضربني ضربا مبرحا جعلني أصرخ في وجه السماء... فإن الزمن عند بقية القاطنين في الدغل كان ربيعا مورقا ومادامت لم تورق لانعدام الأشجار أصلا فإن الصخور أورقت ونهر القيح أورق والتماسيح أورقت والعظام الآدمية الطافحة فوق نهر القيح أورقت ثم أزهرت. ومنذ أن بدأ المطر يضرب ويضربني أخذت أصرخ كأني أغني.

لم السماء بكل هذه الزرقة؟ ولم الطقس بكل هذا الهدوء؟ ولم الدغل بكل هذه الخضرة؟ ولم العصافير بكل هذه الكثرة؟ ولم هذا بكل هذه؟ ولم أنا الوحيد بدون أي شيء سوى هذا المطر الأسود يضربني وهذه التماسيح من تحتي تنتظرني. في نهر القيح وأنا ملتصق إلى جدار هذا الجبل كالسحلية أو العظاية. دون أن أملك قدرة السحلية والعظاية والصرصار؟ ثم حدث أنني عطشت. لقد أصبح عطشي مزمنا فرفعت رأسي إلى ثم فتحت فمي ومددت لساني. كان هذا غباء مني لكن لم يكن خيار. إذ انهالت قطرات المطر الأسود كالسوط تجلد لساني بعد أن جلدت لساني. فندمت وسحبت لساني وبقيت دهرا أراوغ آلام السياط التي انهالت على لساني. وحينما تدخل الزمن ليسكن آلام السياط وجدت أن قطرات المطر الأسود لم تكن ماء. بل قطرات من القيح فقلت سبحان الخالق والمخلوق. لم تكن السماء تضربني بالماء.. لقد كانت تضربني بالقيح. ووجدتني أجتشأ ثم أحاول أتقيأ ما دخل في حلقي من قيح لكن بئت بالفشل. معدتي لم تذق طعاما منذ دهر حتى نست جدوى الطعام. ولم أجد أنا ما اقذف به من جوفي حتى أتخلص من طعم القيح وبدأ دوار البحر يعبث برأسي حتى كدت أن أترك الحزام وأهوى إلى التماسيح ونهر القيح. وبعد وقت لا أعلم مقداره كفت السماء عن ضربي بمطرها الأسود المتقيح. كنت أتضور جوعا. وجوعي هو الآخر أصبح جوعا مزمنا حتى نسيته. لكنني لم أنسى طعم القيح في لساني وفي حلقي. ولم يكن لدي ما أقتل به طعم القيح سوى حجر الجبل. فمططت لساني لألعق الصخر الذي يواجهني. وهذا أمر لا يشينني. لقد فارقت قلبي وفارقني منذ زمن طويل. عقلي قال لي أن الصخر طهارة وأن الصخر ليس مجرد صخر جلمود. الصخر غني بالمعادن وبعض هذه المعادن مفيد لجسد مثلي تكالبت عليه الزوابع والرياح من كل الاتجاهات الأصلية والفرعية وضربه المطر ضربا مبرحا حتى كدت أن يغشى علي وأقع في فم تمساح فاغر أو في نهر القيح الجهنمي. لم أكن في حاجة لمزيد من التبريرات القوية والواهية ووجدتني أمط لساني وألعق الصخر...

... حتى أنت أيها الصخر!

كمن يداوي نفسه بالتي كانت هي الداء. كالهارب من الرمضاء إلى النار أو من النار إلى الجمر حتى الصخر لم يعد له طعم الطهارة. أصبح الصخر متقيحا كأنه أصيب بجراح قاتلة. وحينما لم يسرع أحد للمداواة. التهبت جراح الصخور وبدأ القيح ينز من مسامها... أما أنا فلم يعد أمامي سوى غيبوبتي الأزلية. لقد وقعت في مملكة الصمت والدهشة.

يرين صمت الأشياء عليك ويطول. لكن ضجيج أعماقك يخرق كل صمت. يخرق صمت الأحياء والأموات. وتغمرك الدهشة في الوهلة الأولى أما في الوهلة الثانية والثالثة والعديد اللامعدود من الوهلات تصبح الدهشة لا

القيح

تثير دهشتك بل تصبح مفردة "الدهشة" نفسها لا تعني سوى صوت مجرد صوت غير مسموع... وهذا الصخر الذي قد يعني في بعض اللغات القوة وفي بعضها الآخر الصلابة وفي بعض من أبعاض اللغة يعني مجازا قساوة القلب والجبروت والطغيان... هذا الصخر المثخن بالجراح ولم يجد من يداويه أصبح في زمني المستثنى من القاعدة والاستثناء... هذا الصخر أصبح يثير الشفقة والرثاء حتى في عقل مصلوب مثلي على حائط الجبل.

ثم إن الربيع قد عاد وعدت إلى قلبي الذي هجرته منذ برهة... لقد كان كثيرا علي أن أفكر بطريقتين فأسرعت لقطع الخيوط التي توصلني بجمجمتي، وتركت عقلي ينام في هدوء.

طوال التاريخ الماضي كان قلبي يحدق في الجمجمة وفي الهيكل العظمي الواقف هناك فوق قمة الجبل، كان يفكر في الملامح وكان يرسم ويمحو، ثم يعود ليرسم لكي يمحو، وها أنا ذا الآن أعود لأراقب فضول هذا الهيكل فلا أجد... إن الواقف هناك إنسان حي وليس مجرد هيكل عظمي لإنسان ميت فتساءلت: هل الله هو الذي بعث الميت إلى الحياة كعادته في يوم القيامة، أم أن قلبي هو الذي ملأ الهيكل القديم باللحم والشحم ثم كساه هذا القميص والسراويل؟ لم تعد الحقيقة تهمني كثيراً ثم إن الحقيقة والأكذوبة وجهان لعملة واحدة ولم يعد أمامي سوى أن أهمس: سبحان الخالق والمخلوق، هكذا همست وأنا أتذكر أن المخلوق ما كان ليخلق لولا الخالق ولو أن الخالق لم يخلق شيئا لما وجد أحدا يعرف معنى الخالق، فلا حول ولا قوة إلا بالله وسبحان محيي العظام وهي رميم وسبحان من يكسوها باللحم والشحم في طرفة عين.

الإدمان دائما يفقد فجأة الأشياء، من يدمن الألم لن يعود المزيد من الألم لديه موجعا، ومن يدمن الدهشة تصبح الدهشة أمراً يستحق الاندهاش لم اندهش أن أرى الهيكل العظمي أصبح مفعما بالحياة وحينما بدأ يتحرك من قمته نحوي لم أجد في ذلك ما يدعوني إلى الدهشة أيضا، حاولت جهدي أخاف لكنني لم أقوى على الخوف حتى أنني وجدت نفسي أضحك من سخافة الفكرة، فالحمد لله على نعمة موت الحس رغم كل نحس من كل نوع وجنس، كان الهيكل العظمي الذي اكتسى لحما وشحما وقيافة يقترب نحوي بخطى سريعة وأنا أتساءل: إذا لم أخف فهل هي شجاعة مني أن أراقب الموتى يبعثون بكل رباطة جأش؟ أنا شجاع إذن هذا الخلوص الأخيرة رفع عقيرتي بالضحك مرة أخرى، ضحكت عاليا وليس بعيداً أن يكون هذا القادم من القمة قد سمعني أضحك، ثم قالت لي نفسي: هب أنني خفت أو صمدت ضحكت أو بكيت فما الذي يجديني الخوف أو الشجاعة في موقف لا خيار فيه.

غزارة الرماح المغروزة تجعل كل رمح ينكسر على اتصال الرماح المغروزة مثلما قال عربي قديم، وأنا لم هناك مساحة كافية في جسدي لكي يصيبها أي رمح أو ينصب عليها رايته أي سهم أو سكين، لو خفت من هذا الميت الذي بعث حيا قبل أوان يوم البعث لارتعدت فرائصي ولسرى تيار الخوف من قلبي إلى يدي المتمسكتين بحزامي الواهي أو إلى قدمي الواهنتين المتشبثتين في عناء شديد بنتوء صغير بارز من حائط الجبل.. لو حدث لسقطت من موقعي مثل سحلية أو عظاية، وإذا كنت سعيد الحظ لأرتطم جسدي بالصخور فقط ولأصبت بكسر في جمجمتي وبعدد لا يحصى من الكسور بالإضافة إلى إصابتي بأحد أنياب عزرائيل الذي ينتظرني من زمن طويل ولرحب بي في الحال.

أما في الأحوال العادية فأسقط ككرة السلة في أحد أفواه التماسيح

القيح

الفاغرة وهنا لن أموت إلا بعد أن تفرمني أسنان التمساح فرما، ليس لأن أسنان التماسيح حادة وكبيرة وقوية فحسب بل لأن لديها فوق ذلك ثأرا مني، بعد أن باءت محاولاتها للحاق بي بالفشل وكلما حاولت تسلق حائط الجبل هوت وارتطم جسدها بأجساد غيرها من التماسيح التي تنتظرني وليمة شهية، وهكذا فإنني لو سقطت في أفواهها الفاغرة أبداً فإنها لن تأكلني كما تأكل بقية الحيوانات، سوف تفرمني وتتلذذ بعملية الفرم هذه حتى تشفي غليلها وحينئذ سأكون مجرد مسحوق. لا خيار في كل طرق المتاهة، كل الطرق تؤدي إلى الموت، إنها متاهة الموت... حتى لو وقعت في النهر سيكون عزرائيل في انتظاري في أشد أوقاته مجاعة، إنه ليس مجرد نهر، إنه نهر القيح، يكفي الوقوع فيه لأصبح بدوري هيكلا عظميا في الحال، ستكون الميكروبات والجراثيم المعروفة والمجهولة في الانتظار لكي أطفو هيكلا عاريا مثل هذه العظام الآدمية التي أراها رغم الضباب تطفو فوق نهر القيح وتصطدم ببعضها بفعل التيار الذي يقودها إلى نهايات لا نهاية لها ولا معنى. وأنا في ظروفي هذه لا أستطيع أن اجزم باللانهاية واللاجدوى واللامعنى، إذ يجوز أن يكون لكل ذلك نهاية وجدوى ومعنى لكنني لكي أكون متأكدا مما أرى يجب أن أتقن لغة الموت إذ هذه الأشياء لا يمكن فهمها إلى خلال لغة الموت بمفرداتها ونحوها وصرفها، لكنني في هذه اللحظة لا افقه سوى كلمات لا تشفي الغليل وحتى إذا نطقتها فإن نطقي لن يكون سوى صوتا ميتا مشوب بلكنة لغة الحياة، حتى لغة الموت التي ألوكها ليست سوى لغة مكسرة، يجب الاعتراف أنني لا أتكلم لغة الموت الفصيح، لغتي لازالت مشوبة بلكنة لغة الحياة، ولا سبيل لي إلى إتقان لغة الموت والتحدث بها بطلاقة بنحوها وصرفها وحروف جرها وظروف مكانها وزنها، لا سبيل إلى التبحر في لغة العدم سوى أن أخاف وتزل قدمي لأنزل في جوف تمساح أو أهوى في نهر القيح أو اقطع فأختطم على صخور الجبل البليدة ومادام الخوف أصبح بالنسبة لي أمرا وعرا، أكثر وعورة من الخروج من هذا الدغل، فلن أوفق في الزمن المنظور في فهم معنى الموت أو غاية نهايات نهر القيح لم يعد أمامي سوى أن أتحول إلى صخرة بليدة من صخور هذا الدغل، والواقع أنني أسهى في بعض الأحيان، إذ إنني تحولت إلى تلك الصخرة البليدة منذ زمن لا يعلم إلا الله كم هو طويل لم أعد أحس بكل هذه الأشياء التي كنت اسمعها قديما ويسمونها "العواطف الإنسانية" فأنا مثلا عندما أتذكر كلمة مثل "الحب" فإنني أجد عنتا كبيراً في فهمها، كيف يمكن لشخص مصلوب فوق نهر القيح هذا أن يفهم كلمة الحب؟ أحيانا افهمها بأنها تعني "الكراهية" لكن حتى هذه بدورها لا تقوى على أن تثير في قلبي شعورا ما، فهذا الدهر الطويل الذي عشته مصلوبا في حائط هذا الجبل فوق نهر القيح وتماسيحه... كل ذلك أفقدني بالتقادم معنى الكراهية، الحقد، الغضب، الحب، الحنين إلى نهاية هذه الأشياء التي سمعت من قبل يسمونها بهذا اللفظ الغريب: العواطف الإنسانية، في أحسن الأحوال تصبح هذه الكلمات وغيرها مثل الخير، السعادة، المجد... الخ مجرد كلمات قاموسية غير قابلة للاستعمال في هذا الدغل ليست لأنها غير ضرورية فحسب بل ولأنها غير مفيدة... غير مجدية، مجرد أصوات، مثل أصوات ارتطام أجساد التماسيح بقيح النهر.

لا أدري كم مضى من فصل الربيع المضغوط في لحظة الرعب حينما أقترب الميت مني حتى أصبحت أقوى على تمييز ملامحه، لو كانت في مكان وزمان آخرين لاعتراني الرعب ولقفز قلبي في صدري هلعا، فإن لم تعتريني الرهبة لاعترتني الرغبة في البكاء، وفي اخف الأحوال وطأة كنت أسير دهشة مزمنة لا نهاية لها، منذ أن تفرست في ملامحه عرفته وكأنه لم يمت

القيح

على الإطلاق. كأنني لم أفارقه هذه السنوات التي تستعصي على الإحصاء بأيامها ولياليها وبكل دقيقة مضغوطة بأزمنة وعصور الرعب فيها.

حينما ازداد اقترابا مني لم يكن بي دافع لأصرخ سبحان محي العظام وهي رميم ثم يكسوها لحما وأوعية دموية ويلبسها بعد ذلك نفس القيافة التي رأيتها يرتديها منذ عصور متطاولة في القدم. نعم. ولم أجد الحاجة لأسأل السؤال المعتاد في مثل هذه الأحوال: - - جنس وإلا ونس.

ليرد علي بالسخرية المعتادة والتحدي المألوف المعروف:

- جنس وونس خير من أبيك وأمك.

هذا البروتوكول يستعمل في حالات الفجاءة فقط والحال إن أحدا منا لم يفاجأ بالآخر. كأننا افترقنا الليلة البارحة فقط وليس كل هذه العصور الضاربة في القدم كأن في تلك اللحظة يقترب مني في حذر شديد. ليس خوفا مني إنما يخشى أن ينزلق من المنحدر الذي صلبت فيه وحينما وصل إلى الحافة كانت عيناه مسمرتان في عيني. وكان باستطاعتي أن أتبين الشعاع المنبعث من بؤبؤي عينيه. كأن شماتة أبدية استقرت هناك ولم تغادرها منذ تاريخ سحيق. كنت أتوقع أن يسألني عن سبب وجودي مصلوبا هكذا في حائط الجبل. في هذا الدغل فوق نهر القيح وتماسيحه في كل هذه الفصول المتعاقبة. وكنت أظنه سوف لن يفهمني من ملامحي التي عبثت بها أرواح القبلي والبرد والصقيع والثلج وبقية الرياح الآتية من الجهات الستة عشر. لكن القادم لم يباغت بكل ذلك وكأنه عالم بكل أهوال وأغوال هذا الدغل.. بعد إطراقة صمت ترك فيهما عينين لوحدهما تقولان ما لم يقله لسانه. تحرك لسانه في فمه ببعض الأصوات. كنت أضنه في الوهلة الأولى يهمهم بما لا يريدني أن أفهم. لكنه استمر في إصدار نفس الأصوات وهذا ما استدعاني أن أصدر صوتا بدوري أريد أن أستوضح ما إذا كان يقول شيئا ما يخصني أخيرا فهمت من أصواته المتكررة أنه قال لي بصيغة التعزية والتشجيع التي تغلف حبة الشماتة:

- أنظر إلى ختك تسترح.

لم تعد العينان لوحدهما تشعان شماتة. لقد بدأ الصدر الواغر يحرك لسان محدثي ويرشني بوابل من رذاذ الشماتة تذكرت أنني سمعت بعض الزوار للمستشفيات يلوكون نفس العبارة للمرضى " أنظر لمن هو أسوأ منك تسترح " ولا ادري كيف يستريح المريض إذا رأى زميله يعاني من مرض عضال اشد خطورة؟ أين تكمن الراحة في ذلك؟ أما بالنسبة لي فلست بالمريض حتى تفيدني هذه العبارة وأمثالها. ثم إنني إذا نظرت إلى ختي رأيت نهر القيح المليء بالعظام الآدمية والطافح بالتماسيح الفاغرة. فأين أجد الراحة؟ في فم تمساح يتضور جوعا أم في أعماق نهر القيح؟ قلت لزائر المساء:

- ختي ما ترى من الموت

لكن الزائر أصدر صوتا فهمت منه أنه لم يفهمني فصرخت

- لم يبق ختي شيء سوى الموت.. الموت.. الموت...

كنت أود أن أقول له - رغم رذاذ الشماتة المتطاير من كلماته بأن الموت ليس أمراً مهما. لكن فكري سهى عن زائر المساء فقلت لنفسي أن الشنيع هو الألم. الموت ليس مسألة تستحق القلق أو الاهتمام. الموت حق. والموت لا يثير الضجيج لأن الموت صمت. هذه العضلة التي يأويها الصدر والتي لا تكف عن الرقص في إيقاع منتظم ورتيب ونسميه النبض يكفي أن يعتريه الملل من رتابته فيتوقف ـ حينئذ نختار لهذا الوقوف اسم آخر هو السكتة - السكتة القلبية ليسود الصمت لكن ملل القلب وكلله من رتابته ليس هو

الشـــرط الوحيد لســيادة الصمت. ليس مرة ولا مرتين حدث وإن نام المرء على أمـل اليقظة بعد ســاعة فينام نوما مزمنا وحتى في هــذه الحالة يقال إنها السكتة الدماغية التي تأتي دون إنذار مسبق. فيسود الصمت. الموت مسألة لا تســتحق القلق أو الاهتمام أو حتى مجــرد التفكير فيها. ما يثير الاهتمام والقلــق هــو أن الموت حظ والمرء رغــم كل الرياح التي لا يشــتهيها قد يقوى علــى أن يختار حياته. لكن المســتحيل هو اختيار المــوت. المحظوظون وحدهم هم الذين يموتون موتا نظيفا بلا ضجيج أو صوت ناشــز. أما الموت الذي تستجديه فلا يأتيك حتى ينتقم منك بالألم المبرح خلال تعاقب الفصول هنا سوف تكون ميتا سيء الحظ.

كنت قد خيل لي أني سهوت عن وجود زائر المساء. وخيل لي أنني أفكر بما لا يتعدى جمجمتــي. لكن يبدو أن بعض الأصوات قد صدرت مني فالتقطها الزائر. إذ ســرعان ما سمعته يطلق بعض الأصوات التي ظننتها كعادتي أنها مجرد أصوات لكنني لم ألبث طويلا حتى سمعته يقول لي عبر رذاذ شماتته المتطاير:

- الألــم في الدنيا دليل على حب الله للإنســان في الآخرة كل هذا الذي تعانيه ســتجد ثوابه في الجنة. من يعذبه الله في الدنيا سيدخل الجنة إن شاء الله.

- إن شاء الله... وإذا لم يشأ؟

كنــت أود أن أقول لزائر المســاء أنني مــن أنصار الدنيا ولســت من أنصار الآخــرة. أود أن أقول أنني أخاف الدنيا ولا أخاف الآخرة على الإطلاق. في الآخرة هناك رب واحد أما هذه الدنيا فهي تعج وتضج بالآلهة وأشــباه الآلهة ووزراء الآلهــة وحكوماتها الطاغية والمســتبدة. كنت أود أن أقول لــه أن هذا الألم الذي أعانيه ليس من فعل الله. إذا لا يمكن أن يكون الله بربريا لهذا الحد الذي يصلبني فيه على جدار هذا الجبــل فوق نهر القيح الطافح بالعظام الآدمية والتماســيح وغيرها من الهوام. هذا الصنيع ليس صنيع الله. ليس من عادة الله أن يتلذذ بتعذيب مخلوقاته التي لم يشــاركه أحد في خلقها. كنت أود أن أقــول له أن هذا من صنع البشــر وأن الله ليس ملزما بإدخال الجنة كل من تعذب في الدنيا. إنه كالقانون. لا يحمي المغفلين هممت أن أقول له كل ذلك لكنني أحجمت. زائر المساء يعرف ذلك كله يعرف أن الله بريء لأن زائر المساء كان شــاهداً على صلبي في حائط هذا الجبل. لم يكن شــاهداً فحســب بل كان أحد الفاعلين المباشرة لكل ما جرى. وإن كل كلمة مني ستزيد من غزارة رذاذ الشماتة المتطاير من عينيه وفمه. ثم إن فصل الصيف فاجأني فلم أعد أحفل بزائر المساء ولم اعد أفكر بما سأقوله له.

أنا الآن في مواجهة الخطر المداهم المعتاد. فصل الصيف بأرواحه القبلية. لم تعد أرواح القبلي تحمل أســواطا لقد أصبحت تمســك بأســياخ متعددة حمــراء محملة بغضب الجمر. لم يعد زائر المســاء يعنيني ولم تعد لي فائدة فــي معرفــة القصة كيف بــدأت ولا دور هــذا الزائر فيها. ما حــدث قد حدث وأصبــح فــي الزمن الماضي التام. أنا الآن في الزمن المضارع زمن رياح وأســياخ القبلــي تهب لتنغرز عميقا في جســدي لم يعد جلدي وحــده ملعبا لأرواح القبلي. هذه الأرواح بعد أن تســلحت بأسياخها المتقدة حمرة وجمراً. بحثت في جســدي عن عظامي وأحشــائي لتداعبها بالاعيبهــا النارية. لقد أصبح جلــدي غير كاف. لقــد كفر جلدي هو الآخر. إذ هذه الريــاح والأرواح المتطرفة نــاراً وجليداً جعلت من جلدي لا تتوفر فيه خصائص الجلد الذي ينــاســب رياح القبلــي وغيرهــا من رياح الاتجاهــات الأربعة لقد أصبح مــادة صماء كافرة لا تقــول آه مــن الحرارة ولا آه من الصقيــع والجليد. لكــن أرواح القبلي أصروا أن

القيح

تنطق جسدي بعدد لا يحصى من الآهات. الأسياخ الغاضبة الحمراء تستطيع أن تنطق الصخر بما تشاء من آه. وهذا عين ما حدث. فبرغم أسياخ الأرواح القبلية المنغرزة في طبلتي أذني. استمعت إلى تقلصات وتشنجات الحجارة تفح كأنها الثعابين أو تصيء كأنها العقارب أو تطن كأنها الذباب لو كنت في طرف غير هذا الطرف لانفطر قلبي لما اسمعه من أنين الحجارة والصخور ولم أجد ما أقول سوى سبحان الخالق والمخلوق... وها هي ذي الحجارة تتألم وتتكلم. فيالقساوة قلبي وقلوب الآدميين من أمثالي. وما أرق مشاعر هذه الصخور المضطهدة المتألمة... حقا الآن أوشك قلبي أن يراوغني بتقليد أنين هذه الصخور المرهفة الحس والمثيرة للشفقة في قلوب الآدميين.

حاولت أن أحصي عدد فصول الصيف التي قضيتها مصلوبا في هذا الدغل. لكن ذاكرتي خانتني. لكن جلدي الجاف الذي نضب من العرق أخبرني أن عدد فصول أرواح القبلي أصبحت تستعصي عن الإحصاء. فصول يصعب عدها. جلدي الذي تحول إلى طبقة سميكة صماء لا تفرز حبة عرق واحدة أحال عيني للتحديق في جلد الصخر. لم تكن مفاجأة (ما معنى المفاجآت؟) أن أرى الصخر ينز من العرق. لو كنت في زمن غير هذا الزمن لقلت أنه المطر الذي يضرب الأرض وصخورها ويجري بين الأخاديد أودية وأنهاراً. لكنني في فصل الصيف وفصل أرواح القبلي. لقد استمعت طبلتا أذني رغم أسياخ القبلي إلى أنين الصخور. وها هي ذي الصخور تقطر عرقا. وحتى هذه المرة لم تنبس شفتاي إلا بتسبيح الخالق المخلوق. كنت أصغي إلى وقع حبات العرق من على جلد الصخور مثل وقع قطرات شآبيب المطر. في البداية كان صوت القطرات باهتا. كانت قطرات العرق مجرد شآبيب لو كنت في مكان آخر لأغرتني بالنوم مثلما كانت شآبيب المطر تفعل بي. لكن أرواح القبلي المسلحة بأسياخها المحمرة كالجمر كانت تغوص في أحشاء الصخور مثلما غاصت في أحشائي ثم تستل منها كانت أرواح القبلي في الحق تضاجع الصخور. كل ذي عينين يستطيع أن يرى هذه العملية الجنسية التي لا تخطؤها عين أما تقلصات وتشنجات الصخور وأنينها كلما انغرزت فيها الأسياخ فهذا هو ما يحول العملية الجنسية إلى صورة بروغرافية فاضحة... حتى الصخور أصبحت تمارس الدعارة العلنية. وداعا يا طهارة التربة والحجارة. بعد أن ودعت الصخور صلابتها ها هي الآن تودع طهارتها وبكارتها.

كنت قد نسيت نفسي. ليس رغبة مني في تجاهل القبلي بأرياحه وأرواحه. لأن النسيان ليس بالأمر السهل الذي تكفي فيه الرغبة. الرغبة في النسيان يعني المزيد من الوعي. ولم أنسى لأنني مأخوذ بما أشاهد من شبق الصخر. إذ لم يعد حولي شيء يستدعي الدهشة. كان وقع قطرات العرق المتفصد من جلود الصخور هو الذي أنساني ألم الأسياخ المغروزة في طبلتي أذني وفي بقية أطراف جسدي لقد تحولت أصوات شآبيب العرق من وقع يشبه رخات المطر إلى إيقاعات. لم تكن إيقاعات منتظمة. لكن فوضى الإيقاع هو الذي أعطى لصوت العرق نوتة موسيقية لم تسمع أذناي مثيلها من قبل. لا أريد أن أقول أنني أصبحت استمع إلى موسيقى جميلة. الحق أنني كنت أصغي إلى موسيقى مرعبة. وهذا هو المقال الذي يناسب المقام. موسيقى الرعب هذه هي الموسيقى التصويرية لما جرى ويجري في هذا الدغل. وليس الجمال وحده مهما. الرعب هو الآخر مهم. أخيراً وجدت اللحظة الاصطناعية التي كنت ابحث عنها. في تاريخي السحيق كنت أحصل على هذه اللحظات الصناعية من أقراص الفاليوم أو من السجائر المعبأة بالأفيون أو من زجاجات الويسكي. الآن لم يعد أمامي شيء لأخسره. لقد خسرت كل شيء. وها هي ذي موسيقى الرعب التي تتناهى إلى طبلتي أذني من إيقاعات العرق المتفصد من جلود الحجارة والصخور. تهبني لحظتي

القيح

الصناعيــة التي كنت أبحث عنها. الهروب بجســدي من هذا الدغل لم يعد مهمــا. الأهم من كل ذلك هو الهــروب بهذه الجمجمة الموضوعة فوق عنقي. وهــا هــي ذي جمجمتي تهــرب إلى هذه اللحظــة الموســيقية المرعبة.. إلى إيقاعات حبــات العرق المتقاطر على جلود الصخور. هذه العملية الجنســية التي تمارسها الصخور مع أسياخ أرواح القبلي يجب أن لا اسميها دعارة. إنها حب. الصخور تمارس الحب. ما العيب في ذلك؟ وها هي آهات الصخور تعبر عن شــبقها الملتهب مصاحبة الإيقاعات. الموســيقى التي لم تسمعها من قبل أذني. كل ذلك يزيد في تعميق اللحظة... شبق الصخور تسرب إلي ولم يعد أمامي سوى أن أمارس الجنس مع الصخر. أن أغرز أسناني وكل ما في جسدي مــن نتوءات في أنســجة الحجــارة والصخور. فلتتقلص الصخور ولتتشــنج ولتصدر آهات لذتها لتزيد من شــبقي. أنا الآخر أصبح شبقي ملتهبا وليس الصخــر وحده وليفرز الصخر عرقــه وليتفصد من جبينــه ومن كل أطرافه فهذا شــيء طبيعي في هذه الحال. لئن ما أســتطاع من أنين وغنج ولهفة فأنا الآخر أصبحت ســيخا من أســياخ أرواح القبلي. وليصل الشوق والشبق إلى النهايات التي لا تنتهي... وهبي يا رياح القبلي... هبي.

كنت منهمكا... انهماكي أعطاني فســحة لتســبيح المخلــوق والخالق: منــذ برهة فقط كنــت أتطير من أرواح وريــاح القبلي. جريا علــى عادتنا في اعتبار أن رياح القبلي أرواح شــريرة. كنــا كلما داهمتنا هذه الأرواح في فصل القيظ نهرول لنبحث على الحديد وكان مجرد مساســنا بالحديد كارثة كبرى لأرواح القبلي الشريرة إذ تفر أمامنا هاربة لا تلوى على شيء سوى النجاة من الحديد: الإله الوحيد المســيطر على هذه الأرواح القبلية فينجو العباد والبلاد بفضل سلطان الحديد الإلهي أما الآن فإن أرواح القبلي تحولت إلى مجموعات من الأعضاء التناســلية المذكرة في هيئة أســياخ متقــدة كأنها الجمر تغير على الأرض والصخر وتبدأ في المضاجعة ثم تثير الشــبق في الأرض والحجارة الخرساء فتبدأ في التأوهات والأنين فسبحان العالم ما تخبئه الأرحام وتباركت آلهة الخصب الجديدة.

آلهة الخصب القديمة تحولت من المطر إلى الريح. لم نكن نمسك في وجه المطــر قضبان الحديد بســرها المقدس. كنا نصلي من أجــل المطر إله الخصب كنا نصلي له. نستجديه. نقيم له الاحتفال الأعظم مرة كل العام كي ينزل من ســمائه مطراً يضرب الأرض. يضاجعها ويصــب فيها ماءه المقدس حتى تحبــل وتمتلئ خصوبــة ونماء. في العام الذي يأبى فيــه المطر أن يضاجع الأرض نقدم له القربان. نزف له عروســة بكراً وحينمــا توالت الفصول أصبح المطر المقــدس يكتفــي أن نقدم له رمزا للعروســة نصنعها بتقاطــع عصاتين ثم نزين له العصاتين بملابس العروس ونقصد بها احد أولياء الغيث والماء. ننشــد أناشــيد الغيث والخصوبة فلا يلبث المطر المقدس أن يتنزل مذرارا من سمائه. وقــد وصل بنا الأمر إلــى أن أصبحنا نتملق المطر ونتزلف إليه: قوس قزح مثلا ســميناه عروس المطر. والمطر دائما هو الفحل ولذلك أعطيناه اســما مذكرا يليق به. وفي جميع الأزمنة كنا نراعي مشاعره ونعطي الأرض اسمها المؤنث حتى تليق بشــبق المطر وذكورته. وعندما يتشــرف المطر المقدس بالنزول من عليائه كنا ولا نزال نقول بأن المطر يضرب... يضرب عميقا في أغوار عشيقته الأرض لكي تحبل بســرعة ونقيم أعياد الخصب. لكن في بعض الأعوام عندما يأبى المطر أن يســتجيب لصلاتنا ورجائنا وتزلفنا. حينئذ نجتمع نحن ســكان الأرض ونحاول أن نغري المطر بالغزل. كل ذكر منا في إحدى ليالي تلك الأعوام يجلس أنثاه يناجيها يغازلها يقبلها القبلات الحارة ولكي نزيد في إغواء المطر المقــدس نقوم في منتصف تلك الليلــة ونضاجع بعضنا بعضا من منتصف الليل حتى مطلع الفجر... وهكذا لا يملك المطر المقدس ســوى أن يستجيب.

القيح

عن لم يفعل من أجل صلاتنا فإنه سيفعل من أجل إغرائنا وإغوائنا. من أجل " ليلة الغلطة " على الأقل كما أصبح الناس يسمونها في مواسم غناهم وثرائهم الفاحش ونسوا أو لم يريدوا أن يسموها " ليلة الصحة " والخصب والثراء والعافية وكثرة الحرث والنسل.

لكن الزمن لم يدر زاوية حادة. ولم تكن زاويته قائمة بل لم يدر حتى بزاوية منفرجة معقولة. الزمن دار بلا زاوية لقد أصبح دائراً مائة وثمانين درجة. اختلطت الأشياء ولم يعد الأبيض وأبيض ولا الأسود أسود. عمى الألوان لم يقصر على الألوان وحدها بل امتد إلى الأشياء. لقد حلت أرواح القبلي محل المطر المقدس. وها أنا ذا هنا أضاجع الصخر فلا الصخر أعياه نتوئي ولا نتوئي تعب أو كل من حب الصخر. ولا ملت أسياخ وأرواح القبلي من الإنغراز المتواصل في أحشاء الحجارة والصخور. لم تنتهي هذه المشاهد البروتوغرافية إلا بحلول فصل الخريف.

كان العرق المتصبب من جبين وجلود الصخور قد حفر مساراته فأصبح له صوت كأنه خرير الماء. وفي نهايات الجب السفلي شق له طرقا تشبه الأودية والروافد حيث تلتقي في القاع عند نهر القيح. هنا تحول الخرير إلى هدير - هدير شلالات العرق المتفصد من جلود صخور الجبل.

تسمرت عيناي في شلالات العرق التي ترفد نهر القيح كنت أشاهد النهر يرتفع ويغمر ويغمر المزيد من الصخور خريف هذا العام حسب تقاويم الدغل ليس كالخريف السابق التماسيح تضاعف حجمها ولا أدري ما إذا كان ذلك سمنة أم أنها أصبحت حبلى بفعل أسياخ أرواح القبلي الماضية ومنذ أن أبصرت هذه النعمة الظاهرة على أجساد التماسيح توقعت أن تكون الصخور قد أصبحت حبلى إذ لا ريب أن أسياخ أرواح القبلي قد أطفأت شبقها وضاجعتها حتى المخاض. هذا ليس خيالا لأنني شخصيا شاركت بكل نتوء بارز في جسدي في عملية إطفاء هذا الشبق وفي الإسراع بأن أجعلها حبلى تبشرني بالإخصاب وكثرة الحرث والنسل. وصادف أن تحولت عيناي في نفس اللحظة إلى فوق حيث القمة ثم تحولت في بقية الأدغال في اتجاهات مألوفة. عندئذ فقط فطنت إلى عادتي في أنني أبني من أوهامي أهرامي. لقد رأيت غير ما ظننت بعض الصخور أصبحت هرمة. بعضها الآخر بلغ أرذل العمر. بياضها وشحوبها علامة على شيبها وعجزها الكثير منها أصبح صخرا ميتا لا حياة فيه بعد أن كان في قمة صلابته وعنفوانه. والكثير الكثير من هذه الصخور ذاب تحول إلى هذا العرق إن كان حقا عرقا. لأنني أصبحت في ريب مما أرى ورأيت. أصدق عينا وأكذب أخرى. يصدقني بعض الظن ثم لا يلبث أن يكذبني بعض الظن الآخر. لم أقع هنا ولم أقع هناك.. ولم اقعد حتى في البين. قعدت بين بين. قلت لنفسي وقالت لي بأن الأمر تجارة بائرة وإن أسياخ أرواح القبلي لم تضاجع هذه الصخور. القبلي كان يستمني ولم يضاجع أو يعاشر البتة. أنا أيضا لم أقوى على إطفاء ما تصورته من شبق الصخر. أنا الآخر لم أضاجع صخرا لكن الأمر معي لا يتعدى استمناء عين ما جرى مع أرواح القبلي قد جرى معي وإن هذا العرق المتفصد من جلود الصخر لم يكن بسبب الشبق. لقد تدفقت أودية العرق من أنسجة الصخر بسبب الحرارة التي لا يطيقها من أسياخ القبلي. فليرحم الله ما مات من صخر. وليكن في عون ما تبقى من صخور وحجارة مريضة تعاني الحمى ولا من مداو أو معين.

بقيت هكذا. اصدق عينا واكذب أخرى ثم إنني أمعنت النظر في بعض الحجارة والصخور فرأيت خدوشا أو جروحا وتساءلت: هذه الجروح الفارغة التي أوشكت أن تصل إلى عظام الصخر من يداويها؟ ثم فكرت: ألا يكون ما ظننته عرقا إنما هو قيح؛ القيح الذي ينز من جراح هذه الصخور الملتهبة؟ لو

القيح

لم أكن غبيا لكنت أدركت ذلك في حينه منذ أن سمعت تقلصات وتشنجات عضلات الصخور وهي تقح أو تصيء وتئن. كنت أظن هذه الأصوات تعبيرا عن شبق الصخور. والحق أن الصخور والحجارة بل والجبل كله كان يصرخ من آلام أسياخ القبلي التي وصلت إلى عظامها. أنا الآدمي المجبور من لحم ودم أوشكت أن أصرخ فما بالي بهذه الصخور ذات الحس الرهيف والتي تبكي وتعوي ليس من الألم في موسم القبلي فقط بل وحتى من رياح البحر في مواسم اعتدال الطقس. تصدر أصواتها من رفة النسيم أيضا.

أصبحت الآن أقوى على تصديق عيني الاثنتين معا وفكرت بأن الحجارة لا تصدر صراخا فحسب بل وتقوى على الكلام أيضا. وهذا ما يسميه المتحذلقون برجع الصدى ليس رجع صدى على الإطلاق. إنه محاولة من الصخور والحجارة أن تتعلم لغة الإنسان. ثم هتفت بملء قواي:

- السعداء هم الموتى.

لم اتم كلامي حتى سمعت صخور الدغل تقلدني في صوت جماعي جهوري:

- السعداء هم الموتى.

كانت الصخور تتكلم من كل جانب. حتى حجارة المقابر المزدهرة في جنبات الدغل بل وحتى عظام الموتى كانوا كلهم منخرطين في الجوقة. كان إجماعا لا اعتراض فيه على أن السعداء هم الموتى.

- لا تخف. سأساعدك على الخروج من هذا الدغل.

أغمضت عينا وفتحت عينا ثم أرهفت السمع بكلتا أذني: الصخور لا تقلد الكلام فقط بل تقوى أن تتكلم ما تشاء دون حاجة إلى تلقين. لكن الصخور لا تناقض نفسها فيما تقول. فأنا مثلا لم أشك الخوف من الموت بل قلت إن السعادة هي الموت. الصخور لا تناقض ما تقول منذ لحظة وهذا التفكير هو الذي جعلني انظر إلى فوق... إلى زائر المساء. ما الذي أنساني وجود هذا الزائر طيلة هذه المدة؟ لقد نسيت زائر المساء طيلة فصل الصيف أنستني أرواح القبلي كل ما حولي كأنها سحرتني. وحينما أتى الخريف كنت مهموما ومشغول بمآسي الحجارة والصخور. كنت أحاول أن ألقنها كلام الآدميين حتى سمعت هذا الزائر الذي سكت دهرا ثم نطق كفرا. ما الذي كان يفعله هنا طيلة فصل الربيع الماضي؟ موسم كامل من الشماتة يضيفها إلى عمر كامل من الحق. والآن من منا لا يعرف؟... هذا الذي يعرف أنني اعرف دوره الرئيسي في صلبي على حائط هذا الجبل. من طلب منه أن يمد لي يد الغوث بعد أن مد لي أيادي الموت والعيون واللسان والملامح التي تقطر شماتة. بعد أن أمطرت حقداً في الماضي البسيط والماضي التام والماضي المستمر.

ذاكراتي على استعداد تام لنسيان الماضي التام أما الماضي البسيط فلا يترك في الذاكرة سوى جرحا بسيطا يندمل حينما يتحول هذا الماضي البسيط إلى ماض تام. الكارثة هي الماضي المستمر. هذا الماضي الذي لا يستمر منه سوى السيئ والرديء والقبيح. أما الجميل فإنه يمضي مع الماضي التام. الماضي المستمر هو الماضي المزمن هو المستقبل. وها هو ذا زائر المساء ينتقل عبر الزمان من ماضيه الذي أقطر حقد إلى هذا المضارع الذي يقطر شماته. زائر المساء أزمنت زيارته. إنه الماضي المستمر. الماضي المزمن. وغداً سيصبح هذا هو الماضي المستقبل.

هنا بلغ الإعياء مني أشده. فصل الصيف الماضي أنهكني ولم يترك لي عصبا باردا.. أعصابي أوشكت أن تتقطع من التوتر الذي أوشك أن يزمن. دماغي لم تعد فيه خلية رائقة المزاج. جسدي لم يصرف لي الطاقة الكافية

القيح

لتشغيل قلبي وعقلي معا في مواجهة إشعاع الشماتة المسلط على جلدي من بؤبؤ عيني زائر المساء. أشعة الشماتة أكثر إيلاما من سياط وأسياخ رياح القبلي. أوشكت أن أصاب بالصمم، من كلمات زائر المساء المتشفية حينما عاد يلوكها: " لا تخف، سأساعدك على الخروج من هذا الدغل "... اشتد بي الإعياء، ولازال يشتد مع كل حرف من حروف هذا الزائر المزمن.. هذا الماضي المزمن، ولم يكن أمامي سوى أن اخفف الضغط على جسدي بأن أختار الحياة المؤقتة بنصف طاقتي... في مثل هذه الظروف يصبح تعطيل الدماغ والتفكير بالقلب أمرا ضروريا، وهكذا وجدتني أقوم بشكل آلي بعملية فصل خيوط الاتصال بجمجمتي، مكتفيا بتلك التي تصلني إلى قلبي. التفكير بالقلب أكثر راحة من التفكير بهذا الجهاز الموضوع فوق عنقي. ذلك يعطيني لحظة مزيفة من الراحة، أفضل من لحظات التعب ووجع الدماغ والجنون. لحظة الانفصال من الدماغ مثل سنة من النوم أو مثل حبة الفاليوم، ليست هروبا من الواقع كما قد يظن ولكنها تجعلني أعيش الواقع كما أحب أن أراه لا كما يحب أن يراه غيري، ولا كما يحبني الواقع نفسه أن أراه لا يوجد واقع مطلق، هكذا عودني الماضي المستمر أن أفكر حتى أحتمل فكرة وجود الماضي المستمر أو الماضي المستقبل منطق العقل ليس هو المنطق الوحيد وليس وحده المنطق الحقيقي، من ذا الذي يدعي أنه يعرف السر؟ وكيف يمكن لهذا الجهاز المثبت في العنق أن يدرك المجهول وحده؟ لا احد يملك حاسة سادسة لمعرفة ذلك، وحتى الحواس الخمس ليست في الواقع حواسا خمسا، إنها حاسة واحدة فقط مبثوثة في أطراف وأجواف الجسد وكل تلك الأطراف والأجواف لها منطقها الخاص وملكوتها.

تذكرت أسياخ أرواح القبلي وضربت لنفسي الأمثال: من ذا الذي جعلني أضاجع الصخر ويثير في جسدي ذلك الشبق؟ إن جمجمتي أبلد من أن تشعر بأنوثة الصخر ولا بغنجه وآهاته أما قلبي الخاضع في أغلب الأوقات لسلطان دماغي وجبروته فهو غباء كل الغباء في حب الصخر والحجر... ها أنا ذا بعيد كل البعد عن مرمى بصر زائر المساء وبقية زوار الليل والفجر، أنا الآن أعود قافلا إلى الصخور الميتة والتي كانت قد ظننتها حبلى، إلى الحجارة المدماة التي تصورتها وهي في المخاض... أعود إلى نفسي التي أوشكت أن أنساها مصلوبة على حائط هذا الدغل نهبا للتماسيح التي لا تنى ولا تتوقف محاولاتها في التسلق إلي تغريها رائحة دمي... إلى نهر القيح الذي لم تعد تفصلني عنه سوى مساحة صغيرة بعد أن فاض وطفح بسيول القيح التي ترفده بالأمتار المكعبة التي لا تنتهي من إفرازات ومواد صخور الدغل المعطوبة. استغرقني التحديق في هذا الوباء الذي اجتاح الحجارة والصخور، يبدو أن الصخور التي أثخنتها أسياخ أرياح القبلي بالجراح قد التهبت واكتظت بالجراثيم والميكروبات، هنا أمر أصبح واضحا لعيني الاثنتين، وهذه الصخور الصغرى المحتمية تحت ظلال الصخور الكبرى انتقل إليها الوباء بالعدوى. انتشر الوباء من جلود الحجارة إلى أنسجتها وأوعيتها الدموية، وأصبحت جميعها تنز قيحا، ذلك العرق الذي ظننته إفرازا طبيعيا للشبق الحجري ليس سوى قيح متفصد من أجسام صخور الدغل هذه مسألة أصبحت قديمة لكن الجديد الذي لم تره إحدى عيني من قبل هو هذا الضمور الذي أصاب كتل الصخور. الصخر الصم القابع بعض بجانب البعض والجالس فوق بعضه الآخر ثم تكدست طبقات تعلوها طبقات حتى كونت هذا الجبل. هنا فقط فطنت إلى أن الصخور ليست وحدها موبوءة، لقد اجتاح الوباء هذا الجبل كله. الجبل كله أصبح يتفصد قيحا لقد التهب الجبل كله. وحينما بدأت عضلات الصخور في الصخور أخذ الجبل يضمر شيئا فشيئا، وها هو ذا الآن يتحول من جبل إلى هضبة، منذ أن أصبحت الصخور مريضة مرض الجبل كله كان علي

القيح

أن أعــرف هذه الحقيقة منذ وقت. الجبل ليس ســوى طبقات من الصخور. إذا التهبت أو تقيحت منها طبقة تداعى الالتهاب والتقيح إلى الجبل كله. منذ أن تحول صوت ذلك الســائل النازف الذي ظننته في البداية عرقا. منذ أن تحول ذلك الصوت من خرير إلى هدير كان علي أن افطن إلى الأمر إذا ذابت الصخور ذابــت الجبال. والآن ها أنا أرى بكلتا عيني صخــور الجبل تذوب قيحا ويرفد نهر القيح بالروافد المندفعة من أعالي الجبل.

ربما كانت كارثة تغمر المرء بالأســف والقلق. لكن لم أكن آســفا أو قلقا. أنا الذي لم آســف ولم اقلق لحالي. كيف آســف لجبل آيل للســقوط؟ بعد أن خسرت كل شيء لم يعد لدي شيء لكي أخسره. لم يعد لدي سوى الانتظار والمشاهدة. وهل بوسعي أن أفعل شيء سوى الانتظار والمشاهدة؟

بمرور كل ثانية كانت الأخاديد والســواني والأوديــة تتدفق إلى النهر بهذا الســائل الــذي ينز من جــروح الصخور الملتهبة. منســوب النهــر في ارتفاع مســتمر للحد الذي أيقظ ذاكرتي المنسية وتســاءلت عن تاريخ هذا النهر.. قبل أن أقع أســير هذا الدغل لم أســمع بوجود نهر ما في هذه المنطقة. كل أودية الجبل ليست سوى أودية جافة وهذا هو ما جعل المنطقة تعيش مجاعة مزمنة. لم نكن نســمع بجريــان المياه في أودية الجبل الجافة إلا في مواســم الشــتاء الممطرة كمــا أن المطر الذي تجري به هذه الأودية كان مشــبعا ببراءة المــاء البريء من اللون والطعم والرائحة. إنه الماء المبارك الذي نصلي من أجله ونقدم القرابين والاســتجداء تلو الاستجداء. حتى أن الأودية نفسها أصبحت جافة خالية من الماء فهي لا تخلو من البركة. لأن المطر المقدس عندما يضرب الأرض يفضل أن يجري في هذه الأودية أو أن يجلس فيها ولا يفضل أن يسبح ويســوح في غيرهــا... لكن الأمور لم تعد تجري كمــا الفتها ذاكرتي القديمة. لم يعد هناك فرق بين القاعدة والاســتثناء. بين المألوف وبين الحوش.بين صوت الموســيقى والنشــاز. بين الموت والحياة هذه الأشــياء جميعها يمكن أن تكون شــيئاً واحداً. توالي الفصول حســب تقــاويم الدغل ألغى الفرق بين الشــيء ونقيضه. والمفاجأة لم يعد لها معنى. نهر القيح هذا مثلا لم يســتدع مني علامة استفهام. من الشيء الطبيعي والمعتاد أن يجري نهر بالأمتار المكعبة مــن القيح مثلما يجري بالأمتار المكعبة من ماء الســماء أو ماء الأرض أو ماء العينــين أو غير ذلك من الســوائل. لكن مادام لم يعد أمامي ســوى الانتظار والمشــاهدة فليس بوســع عيني اليمنى وعيني اليسرى تجاهل المرئيات. ليس بوســعها تكذيب أن هذا النهــر تكون من قيح الصخور المنســاب من أعالي الجبــل والهادر في هذا الوادي الــذي كان جافا فأصبح ينضح بما فيه من قيح. ليس بوسع عيني أن تكذبا ما تبصرانه من ضمور عضلات الصخور. وكيف أن الجبل قد توقف أن يكون الجبل المعهود بعد أن أصبح مجرد هضبة أو تلا عليلا على شــفا الموت غرقا في قاع نهر القيح الهادر بعظامه الآدمية وتماســيحه التي لا تشبع نهمها مهما افترست بعضها ومهما ضاجعت بعضها الآخر. أنتظر وأشــاهد ولا أســتطيع أن أفقه شــيئا ممــا تراه عينــاي وحدهما اللتان تبصران وتشــاهدان أما أنا فلم أمت موتا كافيــا يؤهلني لإتقان أو فهم لغة الموت بطلاقة. لا أســتطيع التشدق بزادي القليل من مفردات مملكة الموت. لم استنفذ كل أرماقي بعد. لينطلق لساني بلغة الصمت.

هكذا.. فما دامت الأمور تســير في الاتجاه الذي أراه ولا أســتطيع أن أختار ســواه. مادام كل ذلك كذلك فلابد من التواضع. حتى وأنا أقف مصلوبا على حائــط هــذا الجبل الآيل إلى الســقوط لابد أن أتواضع. يجــب أن أتعلم كيف أتعايــش مع حياتي الجديدة فــي هذا الدغل. الأمر الواقــع معطى موضوعي. يجب أن أعترف بهذا المعطى الجديد. التوجس وسوء الظن بالأشياء لا يجلبان ســوى المزيد مــن التعب. وارتفاع دقات القلب ودوار الــرأس والقيء. ومادمت لا

القيح

أســتطيع أن أتواضع بأن أضع نفسي بين فكي احد التماسيح أو في قاع هذا النهر الهادر المفعم بالموت، فلا أقل من أن أضع جمجمتي بين يدي آلهة الدنيا مادام إله الآخرة مشغول البال بأمور أكثر أهمية من أمري.

لقد وقفت طويلا أمام بوابة الله وبوابات أوليائه فوجدتها مغلقة موصودة دوني، لم يبق أمامي ســوى أن أتواضــع مهما كان الوضع ولأجرب طرق بوابات آلهة الدنيا، أنا لســت في وضع يســهل لي النطــق بكلماتي المفضلة: علي وعلى أعدائي إذ لو اخترت أن اصرخ هذه الصرخة الجميلة فلن ينهار السقف إلا على رأســي، ولن تجد التماسيح ما تفترســه سوى جسدي ولا نهر القيح يجد ما يخوض في قاعه غيري، أما الأعداء فســوف يجدونني متعة وتســلية وقصة يزجون بها أوقاتهم التي لا يعرفون ما يعملون فيها ســوى أكل لحمي وافتراسي في مائدة واحدة مع هذه التماسيح.

لم اشــعر بتعاقب الفصول، ربما لأننــي لم أعد أهتم بالزمن، ولا أدري كم من سنوات الدغل استغرقتها في التفكير في طرق بوابات الآلهة كان الدغل هو الذي يحدد تخوم مرئياتي، الآن ضاقت هذه التخوم أمام عيني وتحولت إلى بوابة أتأملها بإحدى عيني وأغمض الأخرى، ثم أعود أتأملها بعينين صفراوين، في الآونة الأخيرة اقتربت تخوم العالم من حولي إلى أرنبة انفي، ولم أعد أرى مــا وراء ذلك، حتــى عيني قد تواضعتا، تواضع جفني فــوق بعضهما، وهكذا تواضعت حتى عن الانتظار والمشاهدة.

فكرت بمفــردات الدغل، بما تعلمتــه من مفردات الموت والصمت: حســن الظن مريح ومطيل للعمر حســن الظن حتى بالعدو خير من ســوء الظن به إنه منعش للخلايا والأعصاب، لست بالمسيح حتى أتحمل الآلام من أجل أبناء الله لكني لســت بهود الاسخريوطي، هذا شــيء مؤكد، يسوع المسيح كان يعــرف أعداءه وهو مصلوب مثلك، أما أنت أيها المصلوب الجديد يا هذا الفقير الحقيــر إلى مولاه الغنــي من هم أعداءك؟ أبوك لا يصدق أحد أن يكون عدوك، لو قلت شــيئا من ذلك لضحك عليك ولظن بك مساً من الجنون أو غرابة في الأطــوار، يا هذا الفقير الحقيــر، يا هذا الغاضب والمغضــوب عليه والمتحفظ والمتحفظ عليه... يا هذا اللاعن والملعون.. يا أيها المتأرجح المرجوح، الشاطب المشطوب... أيها الكافر من أنت؟